ميخال هَس*

رسم خريطة الاحتلال:
الأدائية والهوية الإسرائيلية الهشة

ملخص

يمثل «إجراء رسم الخرائط» عملية عسكرية روتينية من عمليات الجيش الإسرائيلي، حيث يعمد الجنود إلى رسم خرائط منازل المدنيين، أو جمع التفاصيل الشخصية عن أفراد الأُسر أو التقاط صور لهم. ولا تجري أرشفة «المعلومات» التي تُجمع في أثناء «إجراء رسم الخرائط» أو تمريرها إلى أجهزة المخابرات بعد تنفيذ هذا الإجراء. وبالنظر إلى أن هذه الوثائق المُعدّة لا تُجمع، يتعلق السؤال الجوهري الذي تطرحه هذه الورقة بطريقة عمل «رسم الخرائط» بوصف هذا الإجراء ممارسة من ممارسات الحكم، والطريقة التي يرتبط بها بالهوية الاستعمارية الإسرائيلية. وتسهم الورقة في فهم دلالات الخرائط ضمن إطار الاستعمار، وتدرس رسم الخرائط باعتباره أداءً لا يكتسي طابعًا إقليميًا ويسهم في إنتاج الهوية. وتقترح هذه الورقة ثلاث قراءات «لإجراء رسم الخرائط»، أولها بوصفه أداة حكم أدائية تصنف الناس تصنيفًا هرميًا إلى قوى قائمة بالاحتلال وأشخاص قابعين تحته. ويُنظر في القراءة الثانية إلى الجنود الذي ينتجون الخرائط باعتبارهم قوات تتولى مراقبة الأيديولوجيا الاستعمارية التي تجترّ الاستعمار البريطاني وتقلّده. وأخيرًا، يؤطَّر «إجراء رسم الخرائط» باعتباره أداة توظَّف لتنقيح وإعادة ترسيم الثنائية التضاديّة الإثنية اليهودية-العربية التي تُعَدّ لازمة للمحافظة على الهوية الإسرائيلية المزعزَعة الأركان وإعادة رسم معالمها.

* دائرة العلوم السياسية، جامعة غولدسميث في لندن، المملكة المتحدة
(صدرت النسخة الإنكليزية من هذه المقالة في Geopolitics, 24:3 (2019))

المقدمة

«رسم الخرائط» هو العبارة التي يستخدمها الجنود الإسرائيليون لوصف عملية عسكرية روتينية من عمليات الجيش الإسرائيلي، التي لا ينفك ينفّذها في الأرض الفلسطينية المحتلة في كل ليلة، وفي مئات المنازل في مختلف الأحياء، على مدى الأعوام العشرة المنصرمة. وعلى وجه التحديد، يصف «رسم الخرائط» في الخطاب العسكري الاقتحامات التي تستهدف منازل المدنيين الذين لا يُشتبه بارتكابهم أي جرائم أو إخفائهم أسلحة. وحسبما ورد على لسان الجندي (أ)، الذي يحمل رتبة ضابط، «فإن جنوده يعرفون أنهم سوف يخرجون في مهمة تنطوي على رسم الخرائط ... وهم على علم بأنهم سوف يدخلون منزلًا لا لاعتقال أحد. فالأمر بتلك البساطة».[1] يحدد الجنود في كل ليلة منازل تعود لمدنيين عاديين، وعلى نحو اعتباطي في العادة، ويرسلون فريقًا من القوات لدخول هذه المنازل وتفتيشها. وحسب الوصف الذي يسوقه الجندي (ب)، «يخبروننا بأن نختار منزلين اختيارًا عشوائيًا وأن نرسم خريطتيهما.»[2] ثم يرسم الجنود خريطة ارتجالية للغرف، ويجمعون التفاصيل الشخصية عن جميع أفراد الأسرة ويلتقطون صورة لهم وهم يقفون ووجوههم إلى حائط في بعض الأحيان (جمعية حقوق المواطن في إسرائيل، ٢٠٠٨). ونشير إلى هذا النوع من أنواع رسم الخرائط فيما يلي «بإجراء رسم الخرائط» من أجل التمييز بينه وبين أشكال أخرى من رسم الخرائط التي تتناولها هذه الورقة بالنقاش والبحث.

ومع أن «إجراء رسم الخرائط» يُعَدّ واحدًا من أكثر الأدوات الشائعة في بسط السيطرة العسكرية على السكان المدنيين الفلسطينيين، فهو لم يلقَ حتى الآن سوى النزر اليسير من الاهتمام في وسائل الإعلام والدراسات الأكاديمية. فهذا الإجراء يتسم بقدر أقل من العنف من ذلك الذي تنطوي عليه التدابير العسكرية الأخرى، من قبيل تدمير المنازل أو الاعتقالات أو إطلاق النار، وهو أقل ظهورًا ووضوحًا للعيان من جدار الفصل أو الحواجز بالنظر إلى أنه ينفَّذ في الحيز الخصوصي لمنازل الأُسر، ويفتقر المنطق الذي يبرره ويسوّغه إلى الوضوح. وقد يفسّر ذلك السبب الذي يقف وراء غياب هذا الإجراء غيابًا نسبيًا عن النقاشات العامة. فعندما سألنا مسؤولًا عسكريًا عن «إجراء رسم الخرائط»، أصرّ على أنه لم يسبق له أن سمع بهذا الإجراء، وأن هذا الإجراء لا يَرِد ضمن السياسة الرسمية التي ينتهجها الجيش. ومع ذلك، فقد جاء العميد رومان غوفمان على ذكر «إجراء رسم الخرائط» دون قصد في مقابلة أجرتها معه صحيفة إسرائيلية في العام ٢٠١٦، حيث قال إنه ينفَّذ كل ليلة في منازل الأُسر (يهوشوَع ٢٠١٦).

وتشكّل الشهادات التي يدلي بها الجنود بشأن «إجراء رسم الخرائط»، والتي نقتبسها في متن هذه الورقة، جزءًا من أرشيف أوسع منشور على شبكة الإنترنت، ويضمّ الشهادات الواردة على لسان الجنود الإسرائيليين عن الاحتلال، حيث جمعتها منظمة «كسر الصمت»، وهي منظمة تضم محاربين قدامى إسرائيليين. وتجمع منظمة «كسر الصمت» شهادات الجنود الإسرائيليين عن أعمال العنف التي ارتكبوها أو شهدوا ارتكابها خلال فترة خدمتهم العسكرية باعتبارها وسيلة لإثارة النقاشات العامة التي تنتقد الاحتلال في إسرائيل. كما تعمّم هذه المنظمة أرشيفها الذي يضم تلك الشهادات من خلال المحاضرات، واللقاءات في المنازل وغيرها من الفعاليات العامة في إسرائيل وعلى امتداد العالم. أثار عمل المنظمة بعض الانتقادات الحكومية والعامة، حيث اتُّهم القائمون عليها بأنهم خونة أو جواسيس. ولهذا السبب، يطلب معظم الجنود الذين يدلون بشهاداتهم إبقاءها غفلًا من أسمائهم.[3] وقد ارتأينا أن نحتكم إلى هذا الأرشيف لأنه يجمع بين جنباته شهادات أدلى بها المئات من الجنود من مختلف الوحدات على مدى فترة تربو على عقد من الزمن. هذا الأرشيف ذو فائدة جمّة بالنظر إلى أنه يمثل المصدر الوحيد الذي يحوي مادة مهمة عن «إجراء رسم الخرائط»، الذي نادرًا ما يَرِد له ذكر في أي مصدر آخر. فعلى وجه الإجمال، ثمة ٧٧ شهادة تأتي على ذكر إجراء رسم الخرائط في أوقات ومواقع ووحدات عسكرية مختلفة.

ومن الملفت للاهتمام أنه لا تجري أرشفة «المعلومات» التي تُجمع من خلال «إجراء رسم الخرائط» أو تمريرها إلى أجهزة المخابرات بعد تنفيذه. فحسبما ورد على لسان الجندي (ج)، مثلًا،

> على مدى سني وجود الجيش في الخليل، لم يحتفظ أحد فعليًا بصحائف الخرائط هذه. ففي كل مرة، كان فوج جديد يحضر، ويفتش ألف منزل ويرمي جميع الوثائق في سلة مهملات

من الواضح أن الهدف المتوخى من «إجراء رسم الخرائط» لا يكمن في الحصول على المعلومات الاستخبارية التي يجب الاحتفاظ بها باعتبارها أرشيفًا أو خريطة. وبالنظر إلى أن الوثائق التي تُنتج في هذا السياق لا يُصار إلى جمعها، يتعلق السؤال الجوهري الذي تطرحه هذه الورقة بطريقة عمل «الإجراء» بوصفه ممارسة من ممارسات الحكم.

الوثائق السرية، حسبما أعتقد، وتلك هي نهاية القصة. وهذا في غاية السخافة لأنك تستطيع، في نهاية المطاف، أن تتعلم الكثير من رسم الخرائط، وخاصةً إن كنت تحتفظ بنسخ عنها.[٤]

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما المنطق الذي يقف وراء هذه العملية؟ فمن الواضح أن الهدف المتوخى من «إجراء رسم الخرائط» لا يكمن في الحصول على المعلومات الاستخبارية التي يجب الاحتفاظ بها باعتبارها أرشيفًا أو خريطة. وبالنظر إلى أن الوثائق التي تُنتج في هذا السياق لا يُصار إلى جمعها، يتعلق السؤال الجوهري الذي تطرحه هذه الورقة بطريقة عمل «إجراء رسم الخرائط» بوصفه ممارسة من ممارسات الحكم على الرغم مما يظهر من انعدام فائدته ومنفعته والطريقة التي يرتبط بها بالهوية الاستعمارية الإسرائيلية.

وبعد أن نستعرض مقدمة مقتضبة حول «إجراء رسم الخرائط» ونتطرق إلى الأدبيات ذات الصلة التي تتناول الاحتلال الإسرائيلي، نطرح ثلاث قراءات للإجراء، أولها من خلال فكرة الأدائية، بوصفه أداة حكم أدائية تصنف الناس تصنيفًا هرميًا إلى قوى قائمة بالاحتلال وأشخاص يقبعون تحت نير هذا الاحتلال / الاستعمار. كما يُفهم هذا الأداء على أنه أداة لضمان انضباط الجنود والفلسطينيين معًا، حيث تساعد في ترسيخ هذه الثنائية الاستعمارية. وتنظر القراءة الثانية إلى الجنود الذي ينتجون الخرائط باعتبارهم قوات تتولى مراقبة الأيديولوجيا الاستعمارية التي تجترّ الاستعمار البريطاني وتقلّده. وأخيرًا، يؤطَّر «إجراء رسم الخرائط» باعتباره أداة توظَّف لتنقيح الثنائية اليهودية-العربية الإثنية وإعادة رسم معالمها، وتساعد بذلك في التخلص من هشاشة الهوية الاستعمارية اليهودية الإسرائيلية.

السياسة الأدائية والاحتلال الإسرائيلي: بعض الملاحظات الأولية

يبدو أن لا غاية متوخاة من «إجراء رسم الخرائط»، حسبما يتبين من الشهادة التي يدلي بها الجندي (د):

> هنالك هذه الورقة، وأنت ترسمُ شكلًا من أشكال الرسوم التخطيطية لهيكل المنزل، حيث توجد نافذة، وحيث يوجد باب، وحيث توجد عِلِّية. رسم تخطيطي جوي حقيقي للهيكل، ثم تغادر، وهذا كل ما في الأمر. لا يذهب هذا الرسم إلى أي مكان، فهم لا يُلقون له بالًا.[٥]

ويتجلى هذا الحال في الإفادة التي أدلى بها المواطن الفلسطيني كمال محمد رشيد اسكافي:

> أيقظتني زوجتي الساعة ١١:٠٠ مساءً وقالت لي إن الجيش يطرق على الباب. فذهبت لأفتح الباب وقال لي جندي أن أوقظ أفراد أسرتي جميعًا. وأخبرني أن أجمعهم كلهم في مكان واحد، ثم قال لي أن أذهب معه ومع جندي آخر لتفتيش الغرف. ثم سجّل جندي أرقام بطاقات الهوية وأرقام الهواتف التي يحملها كل واحد منا. وحضر ضابط وأصدر أوامره إلينا بالوقوف بينما كان يحمل وثائق قرب وجوهنا والتقط الجندي الذي كان بجواره صورًا لنا. وغادروا بعد نصف ساعة. وقبل ١٨ شهرًا، حضر الجيش والتقطوا صورًا لنا ونحن نحمل لوحًا كُتبت عليه أسماؤنا بالطباشير على صدورنا.[٦]

وكان من شأن أرشفة المعلومات التي جُمعت خلال هذا الإجراء أن تحسّن شبكة الرصد والمراقبة الإسرائيلية. ومع ذلك، فلا تُبذل أي محاولة على هذا الصعيد، وغالبًا ما يتكرر هذا الإجراء مرات متعددة داخل المنزل نفسه.

يلاحظ عدة باحثين بأن الاحتلال ينفذ عملياته على أساس من التناقضات وانعدام اليقين والفوضى. ويوظّف هذا النظام الذي ينتابه الفشل في ظاهره ذلك الفشل نفسه للإبقاء على الاحتلال. فعلى سبيل المثال، يدّعي كوطيف وأمير أن آلية رئيسية من آليات السيطرة والإدارة التي يعتمدها الاحتلال في هذه الآونة تقوم في أساسها على التخبط. ويفترض هذان الباحثان أن الحواجز تعمل كما لو كانت أداة إصلاحية يُفترض أن يكون الفشل من نصيبها لأن هذا الفشل يبرر العنف ويسوغه (Kotef and Amir 2011). وبالمثل، يعتقد حمامي أن الحواجز تشهد على منطق القوة الذي يقف وراء الاحتلال الإسرائيلي – وهو منطق قائم على انعدام اليقين. فالحواجز تصيب الحياة اليومية التي يحياها الفلسطينيون بالفوضى وتنزع اليقين عنها. ووفقًا لما يراه حمامي، تنتمي الحواجز إلى أشكال العنف الذي يتخطى الحدود الزمنية ويتسم بالاستمرار، فلا بداية له ولا نهاية (Hammami 2015).

ويرتبط هذا الشكل من أشكال العنف بالفكرة التي تطرحها أزولاي وأوفير بشأن «العنف المُضمر»، الذي يشير في معناه إلى العنف الذي يؤجَّل فيه انتشار القوة البدنية وتفشّيها ويقتصر الأمر على الإيحاء بالاتصال العنيف بالجسد (Azoulay and Ophir 2005, 2: 27–). ويولّد «إجراء مسح الخرائط» الصدمة في نفوس أفراد الأُسر، حسب الملاحظة التي يسوقها صبحي سالم رجا الخطيب: «يتعلق جانب آخر من المعاناة التي نتكبّدها بالاقتحامات المتكررة التي ينفذها الجيش لمنزلنا. فهم يقتحمونه تحت ذريعة إجراء التفتيش. وفي العام الماضي، لم يكد يمرّ أسبوع دون أن يدخل الجنود منزلنا».[٧] ويمكن النظر إلى «إجراء رسم الخرائط» باعتباره شكلًا من أشكال «العنف المُضمر». فعلى الرغم من أن هذا العنف يفرِز صدمة وألَمًا دائمين في نفوس الفلسطينيين، فهو لا ينطوي على إيقاع العنف المباشر على الحيز أو الجسد. وحسبما يراه أزولاي وأوفير، يستدعي «العنف المُضمر» قدرًا أضيق من التغطية الإعلامية والانتقاد العالمي، مما يتيح القدرة للاحتلال على الاستمرار فيه في ظل قدر أقل من تدخّل العالم. ونستشفّ مما تقدم أن الأشكال المتباينة التي يأتي عليها الفشل والقصور هي في واقع الأمر أدوات ناجحة تيسّر الإبقاء على الاحتلال. وتحتكم الورقة الآن إلى الحالة المحددة التي يفرزها «إجراء رسم الخرائط» للنظر في الطريقة التي يؤدي فيها إجراء يظهر عليه الفشل، أو يبدو أن لا فائدة مرجوة منه، عمله كما لو كان جهازًا من أجهزة الحكم التي تؤمّن دوام الاحتلال وبقاءه.

يحظى مفهوما الهشاشة والأدائية بالنقاش على نطاق واسع في الأدبيات الجغرافية الراهنة وفي حقول العلوم السياسية فيما يتصل بالاحتلال الإسرائيلي (انظر، مثلًا، Hammani 2015; Harker 2012; Salih 2016). فحسب الملاحظة التي يسوقها جورونين، تميل هذه النقاشات إلى التركيز على وجهة النظر التي تبديها الفئات المهمشة والطريقة التي يسلكها أفرادها في المطالبة بحقوقهم من خلال السياسة الأدائية والتخفيف من مدى الهشاشة التي تعصف بهم (Joronen 2017). وتأسيسًا على ذلك، تكمن المساهمة التي تقدمها هذه الورقة في أنها تنظر في مدى هشاشة الهوية الاستعمارية التي لم تحظَ بحقها من التحليل، والطريقة التي يجري فيها توظيف هذه الهشاشة كوسيلة من وسائل الحكم الاستعماري. ويستكشف جورونين، مثلًا، كيف تستخدم الهشاشة باعتبارها أداة لغايات الحكم، حيث يدرس المنطق الغريب الذي يقف وراء السيطرة، والذي يوظفه الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي في إدامة حالة الهشاشة التي يعيشها الفلسطينيون عبر خلق «أحياز للانتظار». وينطوي هذا الشكل من أشكال السيطرة على عنصر أدائي من وجهة نظر جورونين، حيث أن الإدارة تؤدي الحكم الاعتباري وتكفل الاعتراف بالحق في المطالبة بالحقوق، في الوقت الذي تعطّل فيه إحراز تقدم حقيقي من شأنه أن يؤدي إلى اجتراح تحسّن في حياة الفلسطينيين (Joronen 2017). وهنا نرى، ومرة أخرى، مثالًا على نظام من أنظمة الحكم الفاشلة، والتي يسهم فشلها في الإبقاء على الاحتلال.

وبناءً على التحليل الذي يسوقه جورونين، نقترح أن الأهمية التي ينطوي عليها إجراء رسم الخرائط تكمن في أدائيته. وعلى هذا المنوال، يعبّر والاخ عن الارتباط القائم بين الأدائية والخرائط: فلكي نفهم القاعدة الأدائية التي تحكم الخرائط من الناحية السياسية، يتعين على الباحثين أن يزيلوا الطابع الإقليمي وينزعوه عن قراءات الخرائط أيضًا وأن يدرسوا هذه الخرائط من الناحية الحسية ومن ناحية تمثيلاتها المادية (Wallach 2011). كما تستعرض هذه الورقة قراءة

قد يُنظر إلى الخرائط التي يرسمها الجنود على نحو يشبه موضوعًا خصبًا من مواضيع التحليل، على الرغم من انعدام إمكانية الوصول إليها والاطّلاع عليها. فالخطوط والملاحظات والصفحات نفسها تختفي على جناح السرعة بعد تشكيلها ورسمها، ولكن الحدث نفسه يفرز أثرًا باقيًا على الأطراف التي تشارك فيه. لذلك، تكتسي عملية رسم الخرائط أهمية تفوق إنتاج خريطة منها.

تحمل طابعًا إقليميًا للخرائط. ومع ذلك، تقترح الورقة إنتاج الخرائط بوصفها عنصرًا أدائيًا لم تُسبر أغواره بعد، عوضًا عن التركيز على الإمكانيات التي تتيحها الأدائية في سياق إعادة تمثيل الخرائط.

الأدائية والانضباط: إنتاج الخريطة

تطرح أزولاي (٢٠١٠, ٢) وجهة نظر مثيرة للاهتمام بشأن دراسة «الحدث الذي يرتبط بالصورة - دون الحدث المصوَّر». فالحدث المرتبط بالصورة ينتج لقاءً يجمع بين جهات فاعلة مختلفة، إلى جانب المصوِّر، ومن تُلتقَط صورة له، وغيرهم من الشهود الثانويين المحتملين والكاميرا. ويحتل هذا الحدث أهمية من وجهة نظر أزولاي بصرف النظر عما إذا أُنتجت الصورة أم لا (Azoulay 2010). فبالنسبة لأزولاي، تُعَدّ الصورة وثيقة لها فائدتها في التحليل بغض الطرف عما إذا جرى إنتاجها من عدمه. وقد تساعد الصورة التي لم يتم إنتاجها في تفكيك اللقاء الذي جمع أولئك الذين شاركوا في الحدث (Azoulay 2010). وتسهم النظرية التي تضعها أزولاي في إثارة نقاش يتمحور حول موضوع لم يسبق أن حظيَ بالبحث على نطاق واسع في الدراسات الأكاديمية - وهو إجراء رسم الخرائط الذي لا يفضي إلى إنتاج خريطة. ونودّ، في هذا المقام، أن نقترح أن الخرائط التي يرسمها الجنود قد يُنظر إليها على نحو يشبه موضوعًا خصبًا من مواضيع التحليل، على الرغم من انعدام إمكانية الوصول إليها والاطّلاع عليها. فالخطوط والملاحظات والصفحات نفسها تختفي على جناح السرعة بعد تشكيلها ورسمها، ولكن الحدث نفسه يفرز أثرًا باقيًا على الأطراف التي تشارك فيه. لذلك، تكتسي عملية رسم الخرائط أهمية تفوق إنتاج خريطة منها.

ونرى أن إحدى الطرائق التي تيسّر بيان أهمية «إجراء رسم الخرائط» تتأتى من خلال فكرة الأدائية. فدعونا نتخيل ترتيب الناس في الحيز - الأسرة التي يُجمع أفرادها في مكان واحد، والجنود الذين يؤدون فعل «رسم الخرائط» على ورقة. ففي هذه اللحظة، يمسي الفلسطينيون موضوع الدراسة ويتحول الجنود إلى القوة التي تُجري هذه الدراسة، ومصدر المعرفة والسلطة. وفي هذه اللحظة، تشغل الأسرة حيزًا صغيرًا في منزلها ويتحرك الجنود بحرّية في أرجاء هذا الحيز، ويؤدون بذلك سيطرتهم على نحو رمزي على الأرض كلها. وحسب الملاحظة التي ترد على لسان الجندي (ه):

> كانت لدينا أوامر بتنفيذ عمليات تفتيش عشوائية ورسم خرائط للمنازل، من أجل إشاعة حالة من انعدام اليقين في أوساط الفلسطينيين في الخليل ... وبعبارة أخرى، جميع الخيارات متاحة، وجميع المنازل متيسرة لاقتحامها، وبأي طريقة شئت.[٨]

بذلك، ينتج الأداء ديناميات السلطة التي تمارسها القوى القائمة بالاحتلال والسكان القابعين تحت نير هذا الاحتلال أو المستعمَرين والمستعمِرين. وعلاوةً على ذلك، يسهم هذا الأداء في إنتاج هويات القوى القائمة بالاحتلال ومن يرزح تحت احتلالها.

يتحدث فوكو عن آليات الانضباط بوصفها سلطة تتراكم في الحياة اليومية في الغرب. ومن المفيد أن ندرس نظريته في سياق الأرض المحتلة، حيث تتسم الرغبة في السيطرة بقدر أكبر بكثير من العنف والهَوس (Foucault 1979). ويفترض غوردون بأنه طالما لم تكن ثمة نية حقيقية في دمج السكان الفلسطينيين

يشكل «إجراء رسم الخرائط» أداة مثالية من أدوات المراقبة، وبادئة تمهد السبيل أمام ممارسة السلطة. فالفلسطينيون لا علم لهم بالوقت الذي يخضعون فيه لإجراء رسم الخرائط، ولكنهم يعلمون أنه يمكن إخضاعهم لهذا الإجراء في أي لحظة بعينها.

باعتبارهم مواطنين إسرائيليين على الإطلاق، فإن الغاية المتوخاة من الانضباط تكمن في تحويل الفلسطينيين إلى ذوات يقبعون تحت الاحتلال (Gordon 2008). وبناءً على ذلك، يتشابك ضمان انضباط الفلسطينيين مع عمليات تقوم على التذويت. وتعتمد الرغبة المَرَضية في بسط السيطرة على رقاب الفلسطينيين الذين يؤدون دورًا ذاتانيًا في حاجة مستمرة إلى الرصد والانضباط. ونستطيع أن نتلمّس الطريقة التي تبرز فيها هذه الذاتانية في الشهادات محل النظر، حيث يمضي الجندي (ه) إلى وصف الغاية التي تقف وراء هذا الروتين بأنها ترمي إلى تعريف الفلسطينيين بإمكانية خضوعهم لإجراء رسم الخرائط والمراقبة في أي وقت:

> علينا أن نتأكد من أنهم يعرفون بأننا نستطيع أن ندخل في أي وقت. في كل الأوقات. وأنه في وسعنا أن نظهر في أي لحظة. الساعة الثالثة صباحًا، الساعة السادسة مساءً خلال صيامهم في شهر رمضان ... ولكي نجعل هذا الأمر فعالًا، يجب أن ينفَّذ [إجراء رسم الخرائط] عندما يكون الجميع في المنزل، ولذلك ينبغي أن يتم ذلك في جوف الليل. لذا تُعَدّ المضايقات أثرًا جانبيًا، ولكن تلك المضايقات هي الهدف المتوخى من ذلك كله في نهاية المطاف، حسبما أرى ذلك. كما يكمن الهدف المبتغى في بث الخوف في النفوس. وهذا يعني خلق وضع يعرفون كلهم فيه أن الجيش الإسرائيلي يستطيع أن يحضر في أي لحظة.[٩]

وبذلك، يشكل «إجراء رسم الخرائط» أداة مثالية من أدوات المراقبة، وبادئة تمهد السبيل أمام ممارسة السلطة. فالفلسطينيون لا علم لهم بالوقت الذي يخضعون فيه لإجراء رسم الخرائط، ولكنهم يعلمون أنه يمكن إخضاعهم لهذا الإجراء في أي لحظة بعينها.

والأهم من ذلك أن الانضباط يغيّر السلوك كما نرى ذلك في الوصف الذي تسوقه الجندية (و) «لإجراء رسم الخرائط»، حيث تقول: «يجب على كل واحد أن يجلس في مكان في اللحظة التي ندخل فيها [والمدنيون] يعرفون ذلك في الأصل.»[١٠] ويساعد تغيير سلوك الفلسطينيين في تثبيتهم في أدائهم أو إخضاعهم باعتبارهم ذوات قابعين تحت نير الاحتلال.

كما تطبَّق عملية التذويت التي تتداخل مع الانضباط على الجنود الإسرائيليين. ويلاحظ فوكو أن الانضباط ينتج ذواتًا يُنظر إليها على أنها أهداف وأدوات لممارسته (Foucault 1979). وتتجلى السيطرة التي يمارسها الجنود الإسرائيليون في الأرض المحتلة من خلال «إجراء رسم الخرائط» في الشهادة التي أدلى بها الجندي (أ): «كان [إجراء المسح] ينفَّذ في مرات قليلة. وكان يجري في نهاية المطاف تحت جنح الظلام في الحالات التي لم تكن فيها اعتقالات أو عندما لم نكن ننجز التحضيرات لأي من مشاريعنا.»[١١] وبالتالي، يحول إجراء رسم الخرائط الروتيني بين الجنود وبين بقائهم غير مشغولين. فهو يُستخدم في تأمين انضباط أدوات الانضباط الاستعماري نفسه. وفضلًا عن ذلك، كان هذا الإجراء يُستخدم في تغيير سلوك الجنود. فعلى سبيل المثال، تعود الذاكرة بالجندي (ز) إلى التعليمات التي أصدرها الضابط الذي كان يخدم تحت إمرته بشأن السلوك في أثناء «إجراء رسم الخرائط»: «أتذكّر أنهم أخبرونا بصراحة ألا نكون مؤدبين.»[١٢] وقد نفسّر هذا الطلب على أنه طريقة تفضي إلى المحافظة على الهوية الأدائية التي يحملها الجندي بوصفه القوة المحتلة التي لا يسري عليها الأدب اليومي المطلوب خارج إطار دوره في سياق الاحتلال. ولذلك، يخلق «إجراء رسم الخرائط» أداءً ينطوي على أشكال محددة

تقنيات السيطرة: الانضباط يغير السلوك. الصورة عن حاجز قلنديا وتعود للعام ٢٠١٦. (أ.ف.ب)

من الروتين: حيث يجلس أفراد الأسر الفلسطينيون في اللحظة التي يدخل فيها الجنود أو يتجمعون في حيز واحد داخل الغرفة، ويتفادى الجنود المجاملات اليومية عن قصد أو يتحركون بحرّية في أرجاء منزل ليس لهم. ويسهم هذا الأداء في إنتاج الذوات التي يريدها الاحتلال، والتي تؤدي عملها باعتبارها أهدافًا وأدوات في الوقت نفسه.

وتصنيف الناس إلى فئات متباينة هو ما ييسر، من وجهة نظر مبيمبي، توزيع الحقوق المختلفة على مختلف فئات الناس داخل الحيز ذاته. ونود أن نقترح أن «إجراء رسم الخرائط» يحوّل هذا التصنيف والتسلسل الهرمي إلى أداء. وحسبما يراه مبيمبي، يُعَدّ العِرق نتاجًا للفكر والممارسات السياسية الغربية التي أنشأت درجة أدنى في التسلسل الهرمي «للآخر اللاإنساني». كما يشمل اللاإنسان الطبقات العاملة وعديمي الجنسية و«الهمج» في عالم الاستعمار (Mbembe 2003, 21). فباستخدام فئة اللاإنسان، أنشأت الحداثة الأوروبية الاستعمار باعتباره موقعًا لتعطيل العمل بالقانون في الحالات التي تمارس فيها السيادة السلطة، والحق في القتل أو شنّ الحرب دون أن تخضع في تنظيمها للقانون الوطني أو القانون الدولي (Mbembe 2003). ويعيد الأداء المتكرر لروتين رسم الخرائط، وبصفة مستمرة، بناء موقع هذا التعطيل العرقي الاستعماري في وعي الجنود الذين يؤدونه وفي أوساط السكان الذين يخضعون له كذلك. وبالتالي، يساعد هذا الأداء في تسويغ سلطة الاستعمار والعنف الذي تمارسه وتبريرهما.

وبهذا، تُفهم أهمية «إجراء رسم الخرائط» من ناحية أداء طريقة من طرائق الحكم الذي يصنف الناس تصنيفًا هرميًا إلى مستعمِرين ومستعمَرين. ويجري بناء الذوات التي يتطلبها الاحتلال وأداؤها من خلال الانضباط. ويستعرض الفصل التالي من هذه الورقة سياقًا تاريخيًا لتحليل «إجراء رسم الخرائط» بوصفه أداة توظَّف لتنقيح الثنائية اليهودية-العربية الإثنية التي تُعدّ لازمة للمحافظة على الهوية الإسرائيلية الهشة وإعادة رسم معالمها.

تدلي هذه الورقة بدلوها في الخطاب المتضارب الذي يدور حول إسرائيل والاستعمار من خلال النظر في «إجراء رسم الخرائط» بوصفه شاهدًا على الطريقة التي ورثت فيها إسرائيل الممارسات والمعرفة عن الانتداب البريطاني وغيره من التجارب الاستعمارية.

الأدائية والمحاكاة: الخرائط والاستعمار

لكي نبلغ فهمًا أفضل «لإجراء رسم الخرائط»، ينبغي لنا أن نبسط الإطار الأيديولوجي الذي يشكّله ونبيّنه، حيث يعرّف باحثون مختلفون إسرائيل على أنها شكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني. ويجمع شافير بين التحليل الطبقي الماركسي والتقسيمات الإثنية الثقافية لكي يصف النظام الإسرائيلي على أنه استعمار ينطوي على الفصل بين اليهود والفلسطينيين (Shafir 1989). ومن جانب آخر، يفترض يفتاحئيل أن الحكومة الإسرائيلية تتمسك بمشروع إثنوقراطي استعماري، حيث تشارك دولة إسرائيل في عملية تهويد الأرض عن بكرة أبيها (Yiftachel 2010).

ولنظرية غريغوري فائدتها في وضع الاستعمار الإسرائيلي في سياقه بوصفه جزءًا من نظام جيوساسي أعمّ من أنظمة الاستعمار المعاصر. فغريغوري يقترح في كتابه «The Colonial Present» [«حاضر الاستعمار»] أن الماضي الاستعماري يوجد بوصفه حاضرًا وماضيًا في المجتمع المعاصر. ويلاحظ غريغوري، على وجه الخصوص، كيف أن الاستعمار يُبعث من جديد فيما يسمى الحرب على الإرهاب. وبالنسبة لغريغوري، تنشر الحروب في أفغانستان والعراق – والاحتلال الإسرائيلي المتواصل – تقسيمات استعمارية تشبه «نحن» و«هم»، «الحضارة» و«الهمجية»، و«الصالح» و«الطالح». وتعمل هذه الحكومات على تجريد مجموعة متنوعة من المواقع والسياقات واختزالها في الفكرة الوحيدة التي تنحصر في الإرهاب لكي تكتسب الحق الأيديولوجي في ممارسة القتل (Gregory 2004a). ومع ذلك، يلاحظ رام بأن الكثيرين داخل الأوساط الأكاديمية وخارجها يرون أن تصنيف النظام الإسرائيلي باعتباره استعماريًا تصنيف يجانب الدقة (Ram 1993). وتدلي هذه الورقة بدلوها في الخطاب المتضارب الذي يدور حول إسرائيل والاستعمار من خلال النظر في «إجراء رسم الخرائط» بوصفه شاهدًا على الطريقة التي ورثت فيها إسرائيل الممارسات والمعرفة عن الانتداب البريطاني وغيره من التجارب الاستعمارية.

ويأتي ميشيل على ذكر طريقة التنظيم والإشراف الاستعمارية التي جاء الفرنسيون بها، والتي انطوت على قدر هائل من الإرشاد والتوجيه إلى درجة أنها شملت إعداد قوائم بالأُسر في كل قرية ومنازلها وحتى المواشي التي تملكها. وهذا يشبه على نحو ملفت للنظر الخرائط التي يرسمها جنود قوات الدفاع الإسرائيلية. فعلى سبيل المثال، يقول الجندي (ح): «دخلنا المنازل ووضعنا رسومًا تخطيطية لها. وامتدّ ذلك على مدى فترة قاربت نصف عام، حيث كانت تلك هي مهمتنا، أن نرسم رسومًا تخطيطية لجميع المنازل.»[١٢] وبذلك، يبدو أن الرغبة في رصد الأحياز تعدّ عنصرًا مهمًا من عناصر آلية السيطرة الاستعمارية. وهذا يأخذ بيدنا لنفهم الرغبة التي يبديها الجنود الإسرائيليون في العمل الدؤوب على رسم خرائط الأرض المحتلة بأدق تفاصيلها. وفي الوقت نفسه، كان من شأن أرشفة المعرفة التي ينتجها «إجراء رسم الخرائط» لغايات الرجوع إليها في مراحل لاحقة أن يعزز إشراف الاستعمار على الحيز ويرسّخه. ويصف الجندي (ط) هذا الفشل المتأصل بقوله:

يقفون هناك في جوف الليل، وكل واحد منهم يحمل بطاقة هويته ونصورهم. لأننا لو تمكّنا من تصوير أحدهم وهو يلقي الحجارة خلال المظاهرات بعد ذلك فيكون في وسعنا أن نطابق المعلومات ونضاهيها وأن نعرف كيف نصل إلى المكان الذي يسكن فيه على وجه الدقة، بل وفي أي غرفة. وهذه فكرة جيدة، ولكننا لم نفعل شيئًا بها في واقع الأمر ... وخلال العملية

الثانيــة مــن عمليــات رســم الخرائــط، عندمــا أدركــت أنــه لــم يكــن ثمــة إجــراء منظــم لمــا كنــا نقــوم بــه، فهمــت أن ذلــك كان هــراءً ...[١٤]

ويمكــن تفســير غيــاب الأرشــفة بالإحالــة مــرة أخــرى إلى قــراءة أدائيــة لعمليــة رســم الخرائــط.

فللنظريــة التــي يضعهــا والاخ قيمتهــا مــرة أخــرى، حيــث يــرى أن معاينــة الخرائــط باعتبارهــا مجــرد أدوات مــن أدوات الســلطة يفــوّت الــدور الفاعــل الــذي تضطلــع بــه هــذه الخرائــط في تشــكيل التصــورات الجغرافيــة والسياســية. فبالنســبة لــوالاخ، تقتــضي الأهميــة قــراءة الخرائــط بوصفهــا تعبــيرات أدائيــة تتعلــق بالهويــة والثقافــة والذاكــرة والتاريــخ (Wallach 2011, 363–64). وتأسيسًــا عــلى ذلــك، نــود أن نركــز عــلى العلاقــة التــي تجمــع بــين أدائيــة الخرائــط وإنتــاج الهويــة الاســتعمارية. فقــد اســتهلّت هــذه الورقــة هــذا المنحــى في الأصــل مــن خــلال تأطــير «إجــراء رســم الخرائــط» باعتبــاره طريقــة أدائيــة مــن طرائــق الحكــم الاســتعماري. وفي وســع صندوق استكشــاف فلســطين أن يعطــي مثــالًا عــلى الــدور الــذي تؤديــه الخريطــة في بنــاء الهويــة الاســتعمارية. فقــد أُسِّــس هــذا الصنــدوق في العــام ١٨٦٥ مــن أجــل استكشــاف تاريخ هــذه المنطقــة وآثارهــا وتضاريســها وتكوينهــا الجيولوجــي، وبالتــالي توزيــع الأراضي عــلى أســاس الاســتملاك الــذي يتّســم بقــدر أكــبر مــن الشــمولية وبِســمة روحيــة أكــبر. وقــد أنتجــت هــذه الجمعيــة خرائــط للمنطقــة، حيــث مثلت فيهــا هــذه المعرفــة.[١٥] وأدت العمليــة التــي قامــت عــلى إنتاج هــذه الخرائــط في حــدّ ذاتهــا (وبمعــزل عــن الخرائــط التــي تــم إنتاجهــا) وظيفــة ارتبطــت بالأدائيــة. وقــد يُقــرأ إنتــاج هــذه الخرائــط عــلى أنــه أداء عَمِــل عــلى تأطــير واضعيهــا (وهــم في هــذه الحالــة الجهــات الفاعلــة الاجتماعيــة والسياســية البريطانيــة إبــان حقبــة الانتــداب البريطانــي) باعتبارهــم مصــدرًا مــن مصــادر المعرفــة والســلطة. وقــد ســاعد ذلــك في إنتــاج الهويــة الاســتعمارية الفوقيــة التــي شرعنــت الســيطرة التــي بســطتها بريطانيــا عــلى الأرض.

وقــد كــرر الصهاينــة اليهــود هــذه الإســتراتيجية المرعيــة في رســم خرائــط بلــد مــن البلــدان و«معرفتــه». ففــي العــام ١٩١٤، مــوّل هــؤلاء إقامــة جمعيــة استكشــاف إسرائيــل مــن أجــل ترســيخ الادعــاء بحقهــم في هــذه الأرض، وذلــك مــن خــلال رســم خرائطهــا وإعــداد خطــاب المعرفــة الــذي يتمحــور حولهــا. ومــع قيــام الدولــة اليهوديــة في العــام ١٩٤٨، تحولــت هــذه الجمعيــة العبريــة إلى مؤسســة رســمية مــن مؤسســات الدولــة.[١٦] ويلاحــظ غريغــوري بــأن الاســتشراق ينطــوي عــلى مكــوّن أدائــي:

> فهــو ينتــج الآثــار التــي يســميها. وتشــكّل فئاتــه ومدوناتــه وأعرافــه ممارســات أولئــك الذيــن يجنــون الفائــدة منــه، ويعمــل بــدأب عــلى تشــكيل هدفــه (وهــو «الــشرق» بــكل جــلاء) عــلى نحــو تبــدو معــه هــذه الهيكليــة مرجعًــا بقــدر مــا تبــدو عليــه أرشــيفًا (Gregory 2004b).

وفي حالــة الجمعيــة اليهوديــة، نــرى عمــل الاســتعمار كمــا لــو كان مرجعًــا. ويــبرُز مشــهد مسرحــي في هــذا المقــام. فعــلى الرغــم مــن أن تغييرًا طــرأ عــلى المؤدّيــن، فهم يكــررون الأداء الاســتعماري نفســه الــذي يقــوم عــلى رســم الخرائــط ويجترّونــه. فهــذا الأداء يعــين عــلى إنتــاج الهويــة الاســتعمارية الفوقيــة (التــي يحملهــا النظــام اليهــودي في هــذه الآونــة) والتــي تــرى نفســها كمــا لــو كانــت مصــدرًا للمعرفــة الجغرافيــة التاريخيــة وبالتــالي صاحبــة الســيطرة المشروعــة عــلى الأرض.

وعــلى وجــه الإجمــال، يقــدم هــذا الســياق التاريخــي يــد العــون في إدراك المنطــق الــذي يقــف وراء «إجــراء رســم الخرائــط». فــأداء رســم الخرائــط في كلتــا الحالتــين ينتــج الهويــة الاســتعمارية المرجعيــة. فعــلى ســبيل المثــال، يلاحــظ الجنــدي (ي) بأنــه عندمــا اســتفسر قائــد فــوج مــن قائــد السريــة عــن الغايــة مــن وراء «إجــراء رســم الخرائــط» كانــت إجابتــه: «لإثبــات الســيادة».[١٧] وبذلــك، يشــكل «إجــراء رســم الخرائــط» جــزءًا مــن نظــام أشــمل يقــوم عــلى الســيطرة الاســتعمارية التــي تعمــل عــلى إدامــة نفســها مــن خــلال أنظمــة متباينــة وعــلى مــدى فــترات مختلفــة.

تناولــت هــذه الورقــة بالتحليــل «إجــراء رســم الخرائــط» بوصفــه أداة أدائيــة مــن أدوات الحكــم الاســتعماري. كمــا اســتعرضت الســياق التاريخــي، الــذي نظرنــا مــن خلالــه في عمليــات رســم الخرائــط باعتبارهــا أداءً يســاعد عــلى إنتــاج الهويــة الاســتعمارية. كمــا يميــط تقليــد الأداء الــذي ســلكته بريطانيــا ومحاكاتــه في رســم الخرائــط اللثــام عــن الازدواجيــة التــي تنتهجهــا إسرائيــل، باعتبارهــا نتاجًــا للاســتعمار الــذي يســعى إلى تقليــد الغــرب والتشــبّه بــه، وباعتبارهــا قــوة اســتعمارية في حــدّ ذاتهــا أيضًــا. وتفــضي هــذه الازدواجيــة إلى الفصــل الأخــير مــن فصــول هــذه

تستدعي الهوية الإسرائيلية الهشة ترسيم حدود واضحة بين الإسرائيليين اليهود والفلسطينيين. ومن هذا القبيل، تستلزم الهوية الاستعمارية الهشة تعيين حدود متمايزة بين المستعمِرين والمستعمَرين. ويتطرق وايزمان إلى الجوانب الملموسة التي تؤلف عملية الفصل بين الإثنيات الإسرائيلية والفلسطينية التي تتراكم من خلال ممارسة الرقابة على الحيز.

الورقة، والذي يتطرق إلى هشاشة الهوية الاستعمارية الإسرائيلية، ويرى أن الجنود الإسرائيليين يعيدون تأكيد ارتباط إسرائيل بالهوية الاستعمارية الغربية من خلال أداء «إجراء رسم الخرائط».

يلاحظ وولف ازدواجية تشوب العلاقة القائمة بين الاستعمار الاستيطاني والسكان الأصلانيين. فالمجتمع الاستيطاني يستلزم محو السكان الأصلانيين وطمسهم لكي يطالب بحقه في الإقليم، وهو يحتاج مع ذلك إلى الصفة الأصلانية لكي يميز نفسه عن البلد الأم (Wolfe 2006). ومن هذا الباب، استخدم اليهود الأوروبيون الهوية الشرقية للنأي بأنفسهم عن «اليهود الذين اصطبغوا بصبغة نسوية وحَكَم المال وجهتهم وكانوا محور استهداف معاداة السامية الأوروبية» (Wolfe 2006, 40). وحاول الصهاينة أن يشكلوا هوية جديدة، سعت إلى الاعتماد على قرب اليهود من أبناء الشرق. كما حاولوا أن يعرّفوا أنفسهم على أنهم محليون وأصلانيون من خلال نموذج متخيَّل لليهودي الشرقي القديم (غيز، ٢٠١٥). ووُسم اليهود في أوروبا بوسم الشرقيين أو العرق السامي. ووفقًا لما جاء على لسان بار-يوسيف، فقد سعى المشروع الصهيوني إلى تبييض اليهود وتغريبهم (بار-يوسيف، 2013). وبناءً على ذلك، كان الصهاينة يرغبون في تقليد التفوق الغربي ومحاكاته من خلال تبنّي الممارسات الاستعمارية والمركزية الأوروبية وأدائها من أجل التصدي لتهميشهم في أوروبا. وغدا الصهاينة اليوم يضعون أنفسهم في موضع يتفوق على السكان الأصلانيين. ومع ذلك، لا يزال عنصر ينطوي على تقليد السكان الأصلانيين ومحاكاتهم قائمًا حتى هذا اليوم – الرغبة في تعريف هؤلاء الصهاينة على أنهم السكان الأصيلون في هذه الأرض.

وتُبنى الهوية الاستعمارية من خلال الخطاب الاستعماري وعلى يديه، في حين يحصل المستعمر على سلطته ووجوده من خلال إنشاء الآخر الدوني. ومع ذلك، وحسب الملاحظة التي يسوقها بهابها، تتسم القوة الاستعمارية «بالتناقض على الدوام، وبالانقسام بين المظهر التي تظهر فيه كما لو كانت أصلية ومرجعية والتعبير عنها بوصفها تكرارًا واختلافًا» (Bhabha 1994, 153). وعلى هذا المنوال، تنقسم الهوية الإسرائيلية بين الشرق والغرب، وحقبة الاستعمار وحقبة ما بعد الاستعمار، والتقليد والأصالة. ومن العناصر الأخرى التي تسم هشاشة الهوية الإسرائيلية أن إطارها يتشكل بفعل الهوية الفلسطينية ومن خلالها. وبذلك، تعتمد الهوية الإسرائيلية على الهوية الفلسطينية. وتفيض الجماعة الإسرائيلية بتخوم وتصدّعات داخلية متباينة من قبيل الديني/ العلماني، والمهمَّش/ والمهيمِن، واليهود الأشكنازيين الغربيين/ واليهود السفارديين الشرقيين، وخلافهم. وتتلاشى جميع هذه الاختلافات والفروقات في مواجهة ثنائية العربي/ اليهودي (Rottenberg 2008).

وبناءً على ما تقدم، تستدعي الهوية الإسرائيلية الهشة ترسيم حدود واضحة بين الإسرائيليين اليهود والفلسطينيين. ومن هذا القبيل، تستلزم الهوية الاستعمارية الهشة تعيين حدود متمايزة بين المستعمِرين والمستعمَرين. ويتطرق وايزمان إلى الجوانب الملموسة التي تؤلف عملية الفصل بين الإثنيات الإسرائيلية والفلسطينية التي تتراكم من خلال ممارسة الرقابة على الحيز (Weizman 2007). تقترح هذه الورقة منظورًا داخليًا بشأن عملية الفصل هذه، التي تتراكم بفعل أداء هويات مستقطَبة ومتمايزة من خلال «إجراء رسم الخرائط». ويقترح روتينبرغ أن الثنائية العربية اليهودية تبقى أساسية من خلال مراقبة تحديد الهوية على الدوام (Rottenberg 2008). وبناءً

نرى هنا كيف أن جدة وأمًا وأطفالها الذين ينتابهم الذعر يجري التعامل معهم كلهم كما لو كانوا يشكلون تهديدًا دون أي سبب جلي، اللهم إلا بسبب هشاشة الجنود الإسرائيليين وهشاشة النظام الاستعماري نفسه. ويحتاج الجنود، باعتبارهم شكلًا من أشكال الرقابة في النظام الاستعماري، إلى عدو وجودي لكي يشكّلوا هويتهم.

عـلى ذلك، تشـير هـذه الورقـة إلى أن «إجـراء رسـم الخرائط» يسـهم في عمليـات التذويـت التـي تسـتهدف الفلسـطينيين بوصفهـم مسـتعمَرين والجنـود بوصفهـم مسـتعمِرين، وبالتـالي فهـو ينضـوي ضمـن مسـعًى محمـوم يرمـي إلى ترسـيم حـد فاصـل بـين هويتـين تتسـمان الهشاشـة: إحداهمـا إثنيـة والأخـرى اسـتعمارية.

ينفَّـذ «إجـراء رسـم الخرائـط» في منـازل المدنيـين العـزل. وقـد يكمـن أحـد التفسـيرات التـي تجـلّي هـذا الواقـع في أن الجيـش يوظـف هـذا الإجـراء باعتبـاره نوعًـا مـن الضربـات الاسـتباقية أو العقوبـات الجماعيـة الشـائعة في ظـل الاحتـلال. ومـع ذلـك، وعـلى مسـتوى أعمـق مـن هـذا، فقـد يرتبـط هـذا الإجـراء بالهويـة الاسـتعمارية الإسرائيليـة الهشـة. فحمامـي يسـوق ملاحظـة يـرى فيهـا أن النظـام الإسرائيـلي يعتمـد عـلى الـدور الـذي تؤديـه الـذات الاسـتعمارية بوصفـه تهديـدًا وجوديًـا (Hammami 2015). فمـن خـلال رسـم خرائـط منـازل المدنيـين، ينتـج الجنـود تهديـدًا وجوديًـا ينتـشر في كل مـكان، حتـى في الحيـز الخصـوصي الـذي تملكـه الأسر الفلسـطينية في منازلهـا. ويتجـلى هـذا الأمـر في الشـهادة التـي أدلى بهـا الجنـدي (ك)، والتـي يصـف فيهـا إجـراءً نُفِّـذ عـن قصـد لرسـم خريطـة عندمـا كان موعـد الإفطـار في يـوم مـن أيـام شـهر رمضـان عـلى وشـك الدخـول:

كانـوا قـد قضـوا يومًـا بطولـه صائمـين، وسـألوا في مرحلـة مـا: هـل نسـتطيع أن نـشرب شـيئًا، وأن الطعـام الـذي كانـت الجـدة تجهـزه يحـترق، وإلى غـير ذلـك. ولذلـك، أرسـلنا الجـدة لكـي تراقـب الفـرن. وليسـت لـدي فكـرة عمـا جـال في خاطرهـم عمـا سـتفعله بذلـك الجـزر والبطاطـا، ولكـن جنديًـا جلـس مـع الجـدة وراقبهـا ...[١٨]

ويتجـلى هـذا الحـال أيضًـا في الوصـف الـذي سـاقه الجنـدي (ل) «لإجـراء رسـم الخرائـط»:

تـم تجميعهـم في غرفـة واحـدة ورسـمنا الخريطـة وكان الأطفـال يبكـون بالطبـع بالنظـر إلى أن أشـخاصًا يحملـون أسـلحة دخلـوا منزلهـم وأيقظوهـم مـن نومهـم في جـوف الليـل. وبقـي جنديـان عـلى مقربـة منهـم لمراقبتهـم. وهـذه الصـورة غـير العقلانيـة وغـير الطبيعيـة للمـرأة مـع أطفالهـا الثلاثـة وهـم يجلسـون عـلى الأرض بجـوار الجنود بكامـل عتادهـم وبأسـلحتهم الملقّمـة، التـي لـم يوجّهوهـا نحوهـم وإنمـا كانـوا يقفـون بجوارهـم ويحرسـونهم، جعلتنـي أشـعر بالغثيـان.[١٩]

نـرى هنـا كيـف أن جـدة وأمًـا وأطفالهـا الذيـن ينتابهـم الذعـر يجـري التعامـل معهـم كلهـم كمـا لـو كانـوا يشـكلون تهديـدًا دون أي سـبب جـلي، اللهـم إلا بسـبب هشاشـة الجنـود الإسرائيليـين وهشاشـة النظـام الاسـتعماري نفسـه. ويحتـاج الجنـود، باعتبارهـم شـكلًا مـن أشـكال الرقابـة في النظـام الاسـتعماري، إلى عـدو وجـودي لكـي يشـكّلوا هويتهـم. وفضـلًا عـن ذلـك، يسـعى الاحتـلال الإسرائيـلي إلى الحصـول عـلى تبريـر لاسـتمرار عملـه عـلى الإبقـاء عـلى إحسـاس بالتهديـد الوجـودي.

الخلاصة

تناولـت هـذه الورقـة «إجـراء رسـم الخرائـط» في الأرض المحتلـة، وهـو إجـراء يبـدو أن الفشـل يلفّـه، حيـث يعمـد الجنـود الإسرائيليـون إلى رسـم خرائـط - في كل يـوم - لمنـازل المدنيـين الفلسـطينيين، دون أن يعملـوا عـلى أرشـفتها. ودرسـت الورقـة الطريقـة التـي يعمـل فيهـا هـذا الواقـع الغريـب بوصفـه جهـازًا مـن أجهـزة الحكـم، وكيـف أنـه يرتبـط بالهويـة الإسرائيليـة التـي تتسـم بهشاشـتها وضعـف مقوماتهـا. وبالاسـتناد إلى باحثـين مـن مشـارب شـتى، فقـد بيّنّـا أن «إجـراء رسـم الخرائـط» يشـكل جـزءًا مـن قائمـة طويلـة مـن حـالات الفشـل التـي أصابـت نظـام الاحتـلال، والتـي يحالفهـا النجـاح مـع ذلـك في الإبقـاء عـلى هـذا الاحتـلال وحكمـه. وبنـاءً عـلى ذلـك،

تيسر هشاشة الاحتلال استمراره وتواصله. وتسهم هذه الورقة في فهم دلالات الخرائط في سياق الاستعمار. وهي تدرس بوجه خاص رسم الخرائط من منظور مغاير باعتبارها عملية لا تكتسي طابعًا إقليميًا وتتمايز عن خريطة من الخرائط - أداء يسهم في إنتاج الذاتانية. ومن شأن إجراء المزيد من الأبحاث أن يبين الطريقة التي تسهم فيها أوجه أخرى من أوجه الأداء في إنتاج الهوية ضمن أنظمة قمعية أخرى.

تركز الورقة على المنظور القاصر الذي يَسِم السلطة القائمة بالاحتلال. فإلى حد ما، يعيد التركيز على هذا المنظور إنتاج فعل إخضاع الفلسطينيين ذاته على الوجه الذي بسطناه في النقاش. ومع ذلك، يبدو لنا أنه من الأهمية أن نبلغ فهمًا أفضل لأجهزة الحكم المعقدة التي يتألف الاحتلال منها، وبالذات الطريقة التي ترتبط فيها هذه الأجهزة بالهوية. ويحدونا الأمل في أن تطلق الورقة حوارًا حول الطريقة التي تكفل فض هذه الهوية الاستعمارية، التي يمكن أن ينظر المزيد من البحث فيها ويدرسها. وفضلًا عن ذلك، يتيح التركيز على هذا المنظور لهذه الورقة أن تطرح الأسئلة عن طبيعة الاستعمار المعاصر فيما يُدعى حقبة ما بعد الاستعمار باستخدام الحالة المحددة المتمثلة في إسرائيل.

اقترحنا في هذه الورقة أن إحدى الطرق التي تعيننا على فهم المنطق الذي يقف وراء «إجراء رسم الخرائط» بوصفه وسيلة من وسائل الحكم تتيسر لنا من خلال فكرة الأدائية. فرسم الخرائط يشكل أداءً يصنف الناس تصنيفًا هرميًا إلى قوى قائمة بالاحتلال وشعوب تقبع تحت نيره. ومن خلال ذلك، يعيد أداء رسم الخرائط تشكيل موقع لتعطيل العمل بالقانون، حيث يجري فيه توزيع حقوق مختلفة على فئات متباينة من الناس - الموقع الاستعماري. ولا تزال الحاجة قائمة للمزيد من النقاش والبحث من أجل استكناه الآثار قصيرة الأمد وطويلة الأمد التي يخلّفها «إجراء رسم الخرائط» على السكان الفلسطينيين، ودراسة الدور الذي تؤديه الأسر في التخفيف من هشاشتها في سياق هذا الإجراء اذتي يستهدف منازلها على وجه الخصوص.[٢٠]

ربطت الورقة بين «إجراء رسم الخرائط» وهشاشة الهوية الاستعمارية الإسرائيلية وتزعزُع أركانها، كما استعرضت تحليلًا تاريخيًا لهذه الهوية في سبيل وضعها في سياقها الصحيح. وضمن هذا السياق التاريخي، استقصينا قراءة عملية رسم الخرائط هذه بوصفها أداء، حيث اعتبرنا أن إنتاج الخرائط الاستعمارية باعتبارها أداءً يساعد في إنتاج الهوية الاستعمارية من خلال عرض النظام الاستعماري وتقديمه كما لو كان مصدرًا تُستقى المعرفة والسلطة والتفوق منه. واستمرارًا لهذا النهج، يرتبط «إجراء رسم الخرائط» الذي يتبدى فشله في هشاشة هوية القائمين على هذا الإجراء في القوة الاستعمارية الإسرائيلية والنظام الاستعماري بعمومه. ويحتاج الاحتلال وقوة الرقابة التي يوظفها - والتي تتألف من جنوده - إلى إحساس دائم بالتهديد الوجودي من أجل تسويغ استمراريته والخروج بتصنيف هرمي واضح للناس من أجل الإبقاء عليه.

شكر وتقدير

أودّ أن أعرب عن شكري للدكتور ديفيد إل. مارتين، من جامعة غولدسميث في لندن، على توجيهاته وملاحظاته المحفّزة حول الورقة. كما أود أن أشكر المراجعين والمدققين مجهولي الأسماء في مجلة «Geopolitics» [«جيوبوليتيكس»] على مشاركتهم الفكرية في هذه الورقة وعلى ملاحظاتهم المفيدة بشأنها.

نبذة عن الأرشيف

يضم الأرشيف الإلكتروني شهادات أدلى بها أكثر من ١,٠٠٠ جندي خدموا في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية منذ شهر أيلول ٢٠٠٠. ويمكن الوصول إلى الموقع الإلكتروني الذي يضم هذا الأرشيف بسهولة وتحديثه بصورة يومية. وقد تصدّى الباحثون العاملون في منظمة «كسر الصمت» للتحقق من جميع الشهادات وفحص جميع الوقائع مع شهود عيان آخرين و/أو أرشيفات تملكها منظمات أخرى تعنى بحقوق الإنسان. ويجري إطلاع الجنود الذين يدلون بشهاداتهم لمنظمة «كسر الصمت» على أهداف هذه المنظمة، ويختار معظمهم إغفال أسمائهم. وقد قدمنا التفاصيل المتعلقة بكل جندي في الحواشي عندما اقتبسنا من شهادته المنشورة على الموقع المذكور، وذلك من قبيل رتبته والمنطقة التي خدم فيها والفترة التي قضاها في تلك المنطقة.

(مترجم عن الانكليزية: ياسين السيد)

المصادر

العربية

جمعيـة حقـوق المواطـن في إسرائيـل، ٢٠٠٨، عـلى الموقـع الإلكترونـــي: https://www.arabic.acri.org.il/ [وقـــد زرنــاه واطلعنــا عليــه في يــوم ٢ أيــار٢٠١٧].

العبرية

بار-يوسـيف، أ. ، **فيـلا في الغابـة: أفريقيـا في الثقافـة الإسرائيليـة**. القـدس، إسرائيـل: هاكيبوتـس هاميوحـاد، ٢٠١٣

يهوشـوَع، يـوسي. ٢٠١٦. يديعـوت أحرونـوت، عـلى الموقـع الإلكترونـي:
www.yediot.co.il/articles/0,7340,L-4796895,00.html [
وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

غيـز، د. **الاسـتشراق قبـل إسرائيـل: صـورة فوتوغرافيـة**. تـل أبيـب: ريسـلينغ، ٢٠١٥.

الإنكليزية

- Azoulay, *A.. What is a photograph? What is photography. Philosophy of Photography* 1 (1):2. (2010) doi:10.1386/pop.1.1.9/7.
- Azoulay, A., and A. Ophir. "The monster's tail". In . M. Sorkin, (ed), *Against the wall: Israel's barrier to peace*, New York, NY: The New Press, 2005. 2–27.
- Benvenisti, M. "The Hebrew map". *Theory and Criticism* 11 (1):10 (1979).
- Bhabha, H. K. *The location of culture*. New York, NY: Routledge, 1994.
- Foucault, M. *Discipline and punish: The birth of the prison*. London, UK: Penguin, 1979.
- Gordon, N. "On dowries and bride: A structural analysis of the Israeli occupation". Israeli Sociology 9 (2):278, (2008) [Hebrew].
- Gregory, D. *The colonial present*. New York, NY: Wiley, 2004a
- Gregory, D. "Palestine and the 'War on Terror'". *Comparative Studies of South Asia*,
- *Africa and the Middle East* 24 (1):185–98, (2004b). doi:10.1215/1089201X-24-1-185.
- Hammami, R. "On (not) suffering at the checkpoint: Palestinian narrative strategies of
- surviving Israel's carceral geography". *Borderlands* 14 (1):1–17, (2015).
- Harker, C. "Precariousness, precarity, and family: Notes from Palestine". *Environment*
- *and Planning* A 44 (4):849–65, (2012). doi:10.1068/a4478.
- Joronen, M. "Spaces of waiting: Politics of precarious recognition in the occupied west
- Bank". *Environment and Planning D: Society and Space*, (2017).
- Kark, R., and H. Goren. "Pioneering British exploration and scriptural geography: The Syrian Society/The Palestine Association". *The Geographical Journal* 177 (3):264–74, (2011). doi:10.1111/geoj.2011.177.issue-3.
- Katriel, T., and N. Shavit. 2011. "Between moral activism and archival memory". In M. Neiger, O. Meyers and E. Zandberg (eds), *On media memory*, London, UK: Palgrave
- Macmillan, 2011, 77–78.
- Kotef, H., and M. Amir. "Between imaginary lines". *Theory, Culture & Society* 28 (1):55–80, (2011). doi:10.1177/0263276410380940.
- Mbembe, A. "Necropolitics". *Public Culture* 15 (1):21, (2003). doi:10.1215/08992363-15-1-11.
- Ram, U. "Issues and agendas: The colonization perspective in Israeli sociology: Internal
- and external comparison". *Journal of Historica1 Sociology* 6 (3):330–31, (1993).
- Rottenberg, C."Dancing Arabs and spaces of desire". *Topia* 19 (1): 271, (2008).
- Salih, R. "Bodies that walk, bodies that talk, bodies that love". *Antipode* 49 (3):742–60, (2016). doi:10.1111/anti.12299.
- Shafir, G. Land labour and the origins of the Israeli-Palestinian 1882-1914. Cambridge, UK: Cambridge U.P., 1989.
- Wallach, Y. "Trapped in mirror-images: The rhetoric of maps in Israel/Palestine political geography". *Political Geography* 30 (7):358–69, (2011). doi:10.1016/j.polgeo.2011.07.004.
- Weizman, E. *Hollow land: Israel's architecture of occupation.* London, UK: Verso, 2007.
- Wolfe, P. "Settler colonialism and the elimination of the native". *Journal of Genocide Research* 8 (4):389,(2006).doi:10.1080/14623520601056240.
- Yiftachel, O. "The Palestinians in Israel: Majority-Minority relations and the colonial
- Momentum". *Society and State* (Hevra u-Medina) 7 (1):101–18, (2010). [Hebrew].

الهوامش

١ الجنـدي (أ)، رائـد، الضفـة الغربيـة ٢٠٠٧-٢٠٠٨، قائمـة الشـهادات رقـم ٤٥٤٥١١، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
https://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/454511
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

٢ الجنـدي (ب)، مـلازم، وحـدة ناحـال، الخليـل، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، قائمـة الشـهادات رقـم ٢٥٧١٢٩، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/257129
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

٣ للاطـلاع عـلى المزيـد مـن المعلومـات حـول منظمـة «كـسر الصمـت»، انظـر (Katriel and Shavit, 2011).

٤ الجنـدي (ج)، رقيـب أول، وحـدة ناحـال ٥٠، الخليـل ٢٠٠٦، قائمـة الشـهادات رقـم ٢٩٢٢١٦، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/292216
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

٥ الجنـدي (د)، الرتبـة: مـلازم، وحـدة ناحـال، الخليـل ٢٠١٤، قائمـة الشـهادات رقـم ٧١٧٠٩٥، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/717095
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

٦ كـمال محمـد اسـكافي، ٢٧ كانـون الأول ٢٠٠٨، جمعيـة حقـوق المواطـن في إسرائيـل [ترجمـة المؤلـف عـن العبريـة].

٧ صبحي سـالم رجـا الخطيـب، ١٢ كانـون الثـاني ٢٠٠٧، جمعيـة حقـوق المواطـن في إسرائيـل [ترجمـة المؤلـف عـن العبريـة].

٨ الجنـدي (هـ)، رقيـب أول، وحـدة ناحـال، الخليـل ٢٠٠٤، قائمـة الشـهادات رقـم ٤١٧٢٧، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/41727
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

٩ الجندي (هـ)، الحاشية ٨ أعلاه.

١٠ الجنديـة (و)، الوحـدة سـاخلاف، الخليـل، ٢٠٠١-٢٠٠٢، قائمـة الشـهادات رقـم ٨٠٢٦٢٥، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/802625
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

١١ الجندي (أ)، الحاشية ١ أعلاه.

١٢ الجنـدي (ز)، رقيـب أول، الوحـدة ناحـال ٥٠، منطقـة الخليـل ٢٠٠٦-٢٠٠٧، قائمـة الشـهادات رقـم ٤٨٩٤٩٩، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/489499
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

١٣ الجنـدي (ح)، وحـدة سـاخلاف، الخليـل ٢٠٠١-٢٠٠٢، قائمـة الشـهادات رقـم ٥٣٠٤٦٧، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/530467
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

١٤ الجنـدي (ط)، وحـدة سـلاح المدفعيـة، بيـت لحـم ٢٠١٤-٢٠١٥، قائمـة الشـهادات رقـم ٧٥٩٧٨، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/75978
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

١٥ للاسـتزادة حـول صنـدوق استكشـاف فلسـطين، انظـر (Kark & Goren 2011, 74–264). وانظـر أيضًـا:
Documents and Maps, Palestine Exploration Fund.
http://www.pef.org.uk/maps/ [Accessed 4th October 2017].

١٦ للاطـلاع عـلى المزيـد مـن المعلومـات حـول صنـدوق استكشـاف إسرائيـل، انظـر (Benvenisti 1979, 10).

١٧ الجنـدي (ي)، رقيـب، وحـدة الإدارة المدنيـة، منطقـة نابلـس ٢٠١٤، قائمـة الشـهادات رقـم ٨٦٩٣٩١، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/869391
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

١٨ الجنـدي (ك)، رقيـب أول، وحـدة كتيبـة ناحـال، الخليـل ٢٠٠٥، قائمـة الشـهادات رقـم ٤١٧٢٧، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http://www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database/41727
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

١٩ الجنـدي (ل)، رائـد، الخليـل، ٢٠٠٥، قائمـة الشـهادات رقـم ٥٠٤٠٧٤، عـلى الموقـع الإلكـتروني:
http//:www.breakingthesilence.org.il/testimonies/database504074/
[وقد زرناه واطلعنا عليه في يوم ٢ أيار ٢٠١٧].

٢٠ يلاحـظ هاركـر (Harker 2012)، مثـلًا، الأهميـة التـي تكتسـيها العلاقـات الأسريـة باعتبارهـا وسـيلة للمقاومـة الخفيـة التـي ثـارت في وجـه اضطهـاد الاسـتعمار في سـياق الانتفاضتـين.